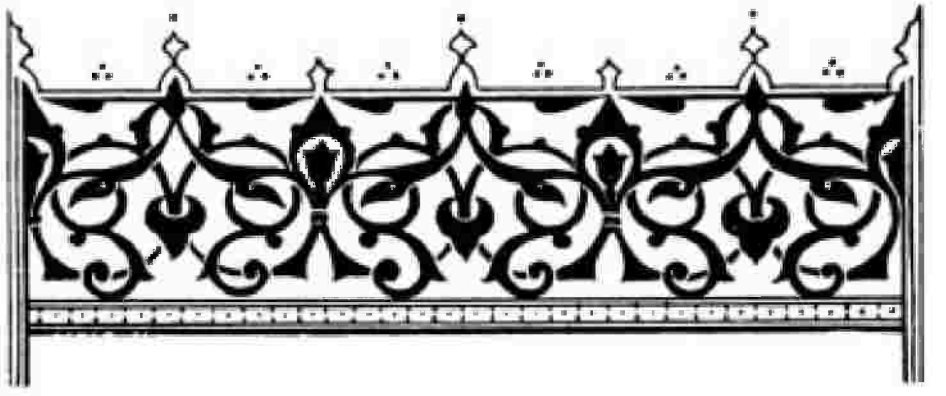

الإدريسى

هو محمد بن محمد الشريف الإدريسى صاحب كتاب «نزهة المشتاق في اختـراق الآفاق». ولا ريب في أنه من أعلام الجـغرافيين المـسلمين الذين كان للرحـلات شـأن عظيم في آثـارهم العلمـيـة. ولد في سـبـتـة سنة ٤٩٣هـ (١١٠٠م). ودرس في جامعة قرطبة، ثم طاف فـي الأندلس وشمالى إفريقية وآسيا الصغرى. ويقال أيضـا إنه زار فرنسا وإنجلترا. ثم لبى دعوة الملك رجار Roger الثاني فنزل في بلاطه بصـقلية، حيث كان التأثر بالمدينة الإسـلامية لا يزال عظيما.

وكان رجار قـد أراد - جريًا على سنة كثير من الأمـراء الشرقيين - أن يؤلف له كـتاب شـامل في وصف مملكـته وسـائر الآفـاق المعروفـة في ذلك العهد، فجـمع ما كتب المؤلفون في هذا الميدان. ووقع اختـياره على الشريف الإدريسى ليصنف له كـتابًا في وصف الكرة الأرضية الفضـية التى صنعت له مرسومًا عليها جميع الأقاليم المعروفـة حينئذ. وطبيعي أن هذا الاختيار يشهد بما كـان للمسلمين من تفـوق في العلوم والفنون في ذلك العـصر. وقـد تم تأليف هذا الكتـاب المسـمى «نزهة المـشتـاق» قـبل وفـاة رجـار سنة ٥٤٨هـ

(١١٥٤م) وظل الكتاب ينسب إلى أمير البلاد فيقال «كتاب رجار» أو «الكتاب الرجاوى».

واستعان الإدريسى في كتابه مؤلفاته الجغرافية الواسعة بما أفاده من رحلاته الخاصة، وبما جمعه الرواد الذين أوفدهم الملك رجار إلى أقاليم المختلفة لاستطلاع أوصافها وتحقيق مواضعها، وبما قيده من أحاديث الرحالة والتجار والحجاج في السفن التى كانت تمر بموانئ صقلية، إلى جنب ما استطاع الحصول عليه من بيانات عن البلاد المسيحية بفضل رعاية الملك رجار المسيحى. والواقع أنه، بهذه البيانات امتاز على سائر الجغرافيين المسلمين فإن من سبقه منهم لم يستطع الكتابة على أوروبا في شيء من الدقة، ولم يظهر بمشاهدات أولئك الرواد الذين أوفدهم الملك حتى إلى أقصى الأطراف مثل اسكندناوة. أما الذين خلفوه فقد عمد معظمهم إلى نقل ما كتبه هو في هذا الصدد.

وطبيعي أيضا أن يمتاز كتاب الإدريسى بغرازة مادته في جغرافية المغرب وصقلية مما يشهد بأنه ساح في تلك الآفاق. أما فيما يخص الشرق فقد نقل كثيراً عمن سبقه من المؤرخين. ومع ذلك كله، فإن ما كتبه عن مصر والشام وفرنسا وإيطاليا وألمانيا والأراضى المطلة على البحر الأدرياتيك يشهد بأنه أفاد كثيراً من سياحاته الخاصة أو سياحات غيره من الرواد. وكتب الإدريسى كثيراً في الغوص عن اللؤلؤ فأحسن عرض هذا الموضوع وألم بأطرافه[١].

وأكبر الظن أن كتب الإدريسى وصلت إلى العلماء المسيحيين بصقلية في العصور الوسطى؛ ولكننا لا نظفر بدليل على ذلك؛ لأن أقدم ترجمة نعرفها

---

(١) راجع كتاب «حديث السندباد القديم» للدكتور حسين فوزى ص١٤٦.

لكتابه «نزهة المشتاق» كانت إلى اللاتينية في بداءة القرن السابع عشر الميلادي. والذى لا شك فيه أن الغربيين اعتمدوا هذا الكتاب في تقويم البلدان، ولا سيما بلاد الشرق، إلى أن تقدم علم الجغرافيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وحسبنا أن نشير إلى ما كتبه البارون دى سلان. (في عدد إبريل سنة ١٨٤١ من المجلة الآسيوية الفرنسية)؛ فقد قال: «إن كتاب الإدريسى لا يمكن أن يوازن به أي كتاب جغرافي سابق له وإن ثمت بعض أجزاء من المعمورة لا يزال هذا الكتاب دليل المؤرخ والجغرافي في الأمور المتصلة بها».

ولا شك في أن ما كتبه الإدريسى عن صقلية يشهد بالتسامح الديني الذى كان سائدا فيها برعاية الحكام النورمانديين الذين كانوا يحثون رعاياهم المسلمين على التمسك بأهداف دينهم والذين يقالإنهم كانوا لا يأذنون للمسلم أن يرتد عن الإسلام. ولا غرو في ذلك فقد كان هؤلاء الحكام شبه شرقيين في مظاهر حضارتهم المختلفة.

ومما يؤسف له أننا لا نعرف شيئًا كثيرًا عن سيرة الإدريسي. وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن مرجع هذا أن المؤلفين العرب كانوا يتجاهلون وجوده لإسرافه في مدح رجار، ولإنصافه المسيحيين في صقلية إلى أبعد حد، في وقت كان المسيحيون فيه يشنون على المسلمين الحروب الصليبية الشعواء، أو يعلمون على طردهم من الأندلس. ولكن هذا التعليل لا يقوم على أساس متين؛ لأن شكةانا في شأن ضياع سيرة الإدريسى تصلح أيضًا لسيرة كثير من سائر الجغرافيين المسلمين، الذين لم يتصلوا بالمسيحيين ولم يسرفوا في مدحهم.

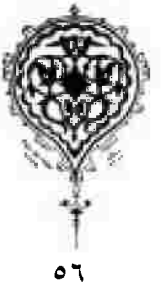

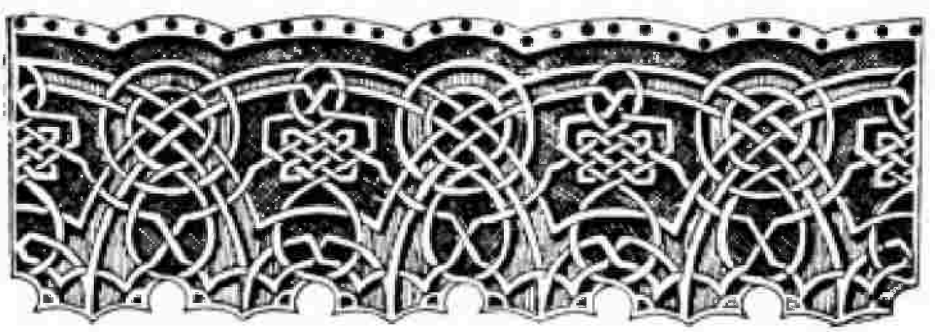

السمعانى

هو عبد الكريم بن أبـي بكر السمعانى من علماء مـدينة مرو. ولد سنة ٥٠٦هـ (١١١٢م) من بيت كريم انتهت إليه رئاسته. وقام برحلات طويلة في طلب العلم والحـديث؛ حتى قـيل إن عـدد شيـوخه زاد على أربعـة آلاف. والمعـروف أنه زار بلاد ما وراء النهـر Transoxiane وجـال في أقاليم الشـرق الإسلامي، ولا سيما إيران والعراق والشـام والحجاز، ولعله طاف في «غيرها من البلاد التى يطول ذكرها ويتعذر حـصرها»، على حد قول ابن خلكان في ترجمته.

ويتجلى علم السمعانى ببلاد الإسـلام في مؤلفه «كتاب الأنساب» الذى جمع فـيه بضعـة آلاف من التراجم مـرتبة على حروف المـعجم، ونسب كل واحد منهـا إلى بلد أو قبـيلة أو صناعة أو تجـارة أو غير ذلك؛ فكـان يضبط حروف النسبة ويشـرحها، وإذا كانت إلى بلد ذكر موقـعه ثم ترجم لصاحب الاسم. والحق أن مثل هذا المعـجم المطول من الأعمال العلمـية الجليلة، التى تتطلب الأسـفار الطويلة والاطلاع الواسع. وقـد لخص «كتـاب الأنساب» أو

أجمله عدد من المؤلفين. واختصره السمعانى نفسه في كتاب طبعته مصوراً لجنة تذكار جب Gibb Memorial سنة ١٩١٢.

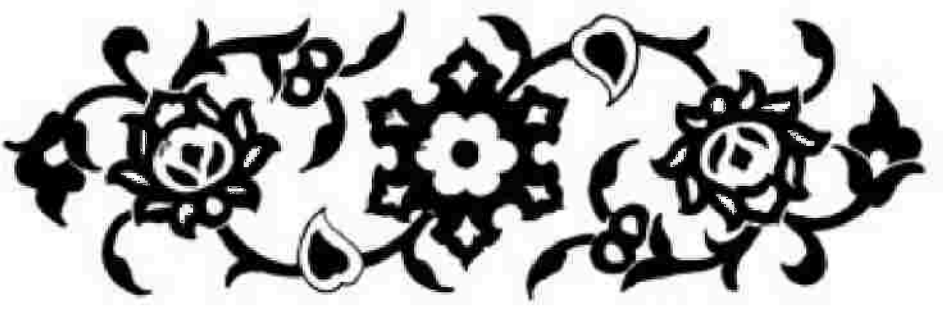

ابن جبير

كان كثير من الحجاج القادمين من الأندلس يزورون المغرب ومصر والشام في طريقهم إلى الحجاز، ثم ينتهزون هذه الفرصة للطواف في بعض الأقاليم الإسلامية الأخرى. وأعظم أولئك الحجاج شأنًا في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) هو ابن جبير؛ فقد قام بثلاث رحلات إلى الشرق ودون أخبار الرحلة الأولى في شبه مذكرات يومية تعرف باسم «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار». ولعله كتبها حول سنة ٥٨٢هـ (١١٨٦م). وقد قام على نشرها المستشرق الإنجليزي رايت W. Wright سنة ١٨٥٢ ثم ظهرت منها طبعة جديدة سنة ١٩٠٧ راجعها المستشرق الهولندى دى خويه.

ولد ابن جبير في مدينة بلنسية سنة ٥٤٠هـ (١١٤٥م). ودرس على أبيه وغيره من علماء العصر في سبتة وغرناطة، ثم دخل في خدمة أبى سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرناطة. ومما جاء في ترجمة ابن جبير عن كتاب نفخ الطيب للمقرى أن الأمير أبا سعيد استدعاه يومًا ليؤلف فيه كتابًا وهو في مجلس شرابه وحدث أن دفع إليه كأسًا من النبيذ، فاعتذر ابن جبير بأنه ما شرب الخمر قط، فقال الأمير: والله لتشربن منها سبعًا؛ فلم يستطع إلا

الإذعان. وكافأة الأمير بأن قدم إليه القدح سبع مرات أخرى مملوءة بالدنانير وصب ذلك في حجره. وانصرف ابن جبير. وعقد العزم في الليلة نفسها على أن يذهب لتأدية فريضة الحج تكفيراً عن ذنبه في شرب النبيذ. وأنفق تلك الدنانير في سبيل البر وباع عقاراً له تزود به.

* * *

بدأ ابن جبير رحلته إلى الأراضى الحجازية في شوال سنة ٥٧٨هـ (فبراير سنة ١١٨٣م) مع صديق اسمه أحمد بن حسان كان من رجال الطب والعلم والأدب. وعبر الصديقان البحر إلى مدينة سبتة Cauta حيث وجدا سفينة من سفن مدينة جنوة، تريد الإقلاع إلى الإسكندرية، فركباها يوم الخميس ٢٩ من شوال (٢٤ فبراير) وبدأ ابن جبير تقييد يومياته منذ اليوم التالي. ومما يشهد بأن العلاقات بين الأفراد المسيحيين والمسلمين كانت طيبة أن ابن جبير سره التوفيق لتلك السفينة وكتب أن الله «سهل عليه وعلى صديقه ركوبها».

أقلعت السفينة من ثغر سبتة الواقع على شاطئ مراكش في مواجهة جبل طارق. وسارت محاذية لشاطئ الأندلس حتى ثغر دانية جنوبي بلنسية. ثم اتجهت شرقا مارة بجزائر البليار. وكادت أنواء البحر وأمواجه أن تعبث بها، لولا مركبًا مسيحيًا آخر، كان قادمًا من قرطاجنة الإسبانية وميمها شطر صقلية، فاقتفت أثره. واستطاعت أخيراً أن تصل مع ذلك المركب إلى برسردانية حيث جدد المسافرون الماء والحطب والزاد. وقيد ابن جبير أن مسافراً مسلمًا ممن يعرفون اللسان الرومى هبط مع جماعة من الروم إلى أقرب المواضع المعمورة من المرسى الذى وصلت إليه السفينة فرأى نحو ثمانين من

أسرى المسلمين رجالا ونساء يباعون في السوق، وكان الروم قد عادوا بهم من غزوة في سواحل البحر ببلاد المسلمين.

أقلعت السفينة بعد ذلك إلى صقلية. ووصف ابن جبير ما مر بها من العواصف والأهوال إلى أن أرست على شاطئها عند موضع لم يحدده. ثم فارقته إلى ثغر الإسكندرية فوصلت إليه في ٢٩ من ذى القعدة أي بعد شهر من بدء رحلتها من مراكش.

وطبيعي أن أول ما شاهده ابن جبير في الإسكندرية إنما كان متصلا بما نسميه اليوم «إجراءات الجمرك». والحق أنه وصفها في دقة وطرافة، تحملنا على روايتها على لسانه، لنتبين أن كثيراً من الأنظمة التى تبدو لنا اليوم من تمخضات مدنيتنا ليس في الحق إلا تطوراً طبيعيًا لما عرفه القوم في العصور الوسطى.

قال ابن جبير: «فمن أول ما شاهدنا فيها (أي في الإسكندرية) يوم نزولنا أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها لتقييد جميع ما جلب فيه؛ فاستحضر جميع من كانوا فيه من المسلمين واحداً واحداً، وكتبت أسماؤها وصفاتها وأسماء بلادهم وسئل كل منهم عما لديه من سلع أو ناض (نقد) ليؤدي زكاة ذلك كله، دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل. وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم فلزموا أداء زكاة ذلك دون أن يسأل هل حال عليه حول أم لا. واستنزل أحمد بن حسان منا، ليسأل عن أنباء المغرب وسلع المركب؛ فطيف به مرقبًا على السلطان أولا. ثم على القاضى ثم على أهل الديوان ثم على جماعة من حاشية السلطان، وفي كل يستفهم ثم يقيد قوله فيخلى سبيله.

وأمر المسلمـون بتنزيل أسبـابهم وما فضل من أزودتـهم. وعلى ساحل البحر أعـوان يتوكلون بهم وبحمل جـميع ما أنزلوه إلى الديوان، فاسـتدعوا واحدًا واحدًا وأحضر ما لكل واحـد من الأسباب. والديوان قد غص بالزحام فوقع التفتيش لجميع الأسباب، ما دق منها وما جل. واختلط بعضها ببعض. وأدخلت الأيدي إلى أوساطهم بحثًـا عما عسى أن يكون فيهـا. ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم غيرى ما وجـدوا لهم أم لا. وفي أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدى وتكاثر الـزحام. ثم أطلقوا بعد موقف من الذل والخزى عظيم... وهذه لا محالة من الأمـور الملبس فيها على السلطان الكبيـر المعروف بصلاح الدين. ولو علم بذلك، على مـا يؤثر عنه من العدل وإيثار الرفـق، لأزال ذلك وكفى الله المؤمنين تلك الخطة الشـاقة، واسـتؤدوا الزكاة على أجمل الوجوه. وما لقينا ببـلاد هذا الرجل ما يلم به قبيح لبعض الذكر سوى هذه الأحدوثة، التى هي من نتائج عمال الدواوين».

فقد آلم ابن جبيـر أن يساء إلى الحجاج المسلمين، وأن يطلب إليهم أداء الزكاة عن جميع ما معهم، بدون تفرقـة بين الذى حال الحول فاستحقت عليه الزكاة وما لم يحل عليه الحول فلا زكاة عليه، كـما آلمته القسوة في تفتيشهم. والظاهر أن هذه الدقة في «جمرك» الإسكندرية قديمة، فـقد ذكر الأستاذ نقولا زيادة في كـتابه «رواد الشـرق العربي»، الذى أخـرجتـه مجلة المقـتطف، أن السائح المسيحي برنارد الحكيم روى عن نفـسه (في القرن التاسع الميلادي) أنه فتش في الإسكندرية وحقق معه، ودفع ستة دنانير ذهبية.

وقد لقى ابن جبير مثل هذا التـفتيش بالإسكندرية في رحلته الثانية إلى مصر؛ فكتب قصيدة يمدح فيهـا السلطان صلاح الدين، ويشير إلى فتحه بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م)، وينصحه بإزالة هذه الأساليب التى تهتك فيها الحرمات وتنسى حقوق المسلمين، ومن أبيات هذه القصيدة:

يعنت حجاج بيت الإله ... ويسطو بهم سطوة الجائر
ويكشف عما بأيديهم ... وناهيك من موقف صاغر
وقد أوقفوا بعد ما كوشفوا ... كأنهم في يد الآسر
ويلزمهم حلفا باطلا ... وعقبى اليمين على الفاجر
وإن عرضت بينهم حرمة ... فليس لها عنه من ساتر
وليس على حرم المسلمين ... بتلك المشاهد من غائر
ألا ناصح مبلغ نصحه ... إلى الملك الناصر الظافر
فما للمناكر من زاجر ... سواك وبالعرف من آمر
وحاشاك إن لم تزل رسمها ... فما لك في الناس من عامر

أما الطواف بأحمد بن حسان - زميل ابن جبير - على طائفة من الموظفين لسؤاله عن أنباء المغرب، فيذكرنا بما يحدث اليوم بين دول المتحاربة من استجواب القادمين إليها من أبناء بلاد الأعداء أو ممن مروا بتلك البلاد؛ ليمكن الإفادة مما قد يدلون به من أخبار. ومما يؤسف له أن ابن جبير لم يدرون شيئًا عما اتبع الثغر مع المسافرين من غير المسلمين.

عرض ابن جبير بعد ذلك لوصف الإسكندرية فذكر آثارها وعمائرها ومنارها وأعجب بما فيها من مدارس للغرباء «يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنًا يأوى إليه ومدرسًا يعلمه الفن الذى يريد تعليمه» كما أشار إلى المستشفى الذى شيده السلطان لأولئك الغرباء، وإلى الخيرات التى أوقفها للعناية بهم. ولاحظ كثرة المساجد إلى حد أن توجد منها الأربعة والخمسة في موضع واحد. وأتيح لابن جبير أن يشاهد في الإسكندرية دخول

الأسرى الصليبيين، الذين وقعوا في يد المسلمين في الحملة الصليبية الفاشلة، التى كان صاحب الكرك قد دبرها في البحر الأحمر للاستيلاء على المدن الإسلامية المقدسة. وقد أدخل الأسرى «راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذنابها وحولهم الطبول والأبواق».

ثم انتقل ابن جبير إلى القاهرة ومصر - وهذا الاسم الأخير هو الذى كانت تعرف به حينئذ مدينة الفسطاط وضواحيها المتصلة بالقاهرة - ونزل بفندق أبي الثناء في زقاق القناديل بمقربة من جامع عمرو بن العاص. وأقام في عاصمة البلاد أياما؛ زار فيها مشهد الحسين والقرافة وضريح الإمام الشافعي، والمدرسة الناصرية التى شيدها بإزائه السلطان صلاح الدين، ولم تكن عمارتها قد تمت بعد. وأعجب ابن جبير بسعتها فكتب: «يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته. بإزائها الحمام إلى غير ذلك من مرافقها». وحرص على لقاء شيخها نجم الدين الخبوشاني، لأنه كان قد سمع في الأندلس بفصله وبركته. ثم شاهد مارستان القاهرة وبنيان القلعة والسور الذى كان صلاح الدين يريد أن يتخذه حول القاهرة والقطائع والعسكر والفسطاط فيجمع عواصم مصر الإسلامية كلها. وقد عثرت دار الآثار العربية في حفائرها على أطلال هذا السور.

كما شاهد القناطر التى شيدها السلطان عند بدء الصحراء الغربية «بعد رصيف ابتدئ به من حيز النيل بإزاء مصر كأنه جبل ممدود على الأرض تسير فيه مقدار ستة أميال حتى يتصل بالقنطرة المذكورة». وكانت القنطرة والطريق المرصوف معًا جزءًا مما أعده السلطان للدفاع عن البلاد من جانب الغرب. ولاحظ ابن جبير أن جميع المسخرين في العمائر والمنشآت المختلفة كانوا من أسرى الروم. ووصف أهرام الجيزة «وأبا الهول».

وأشار في حديثه عن القاهرة إلى فضل السلطان صلاح الدين في محو المكوس، التى كانت مفروضة على الحجاج في عصر الدولة الفاطمية، والتى كانت تجبى يضطهدون ويعذبون في سبيل دفعها؛ وأما الذين لا يدفعون الضريبة في عيذاب، وتصل أسماؤهم إلى جدة «غير معلم عليها علامة الأداء» فكانوا يلقون فيها أضعاف هذا التنكيل. فأبطل صلاح الدين هذه المكوس، وعوض أمراء مكة بما يرسله إليهم سنويًا من الطعام والمال.

***

ثم صعد ابن جبير في النيل إلى قوص. ووصف بعض المعابد في المدن التى توقفت عندها المركب، كما شرح ما يلقاه الحجاج والمسافر من عسف العمال المكلفين جمع الزكاة، فقد كانوا يعترضون المركب ويفتشون المسافرين ويفحصون الأمتعة بوساطة مسلة طويلة يتخللون بها الأكياس والحزم.

ودخل ابن جبير قوص فكتب أنها حافلة الأسواق، متسعة المرافق، كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار المصريين والمغاربة واليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة. ثم سافر منها إلى عيذاب بطريق الصحراء الذى ذاعت شهرته في عالم التجارة في العصور الوسطى. ووصف ابن جبير هذا الطريق وأشار إلى ضخامة تجارته في الفلفل وأنواع التوابل فقال «ورمنا في هذا الطريق إحصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكن لنا، ولا سيما القوافل العيذابية المتحملة لسلع الهند الواصلة إلى اليمن ثم من اليمن إلى عيذاب وأكثر ما شاهدنا من ذلك أحمال الفلفل فلقد خيل إلينا لكثرته أنه يوازى التراب قيمة. ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء أنك تلتقى بقارعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائرها من السلع مطروحة لا حارس لها، تترك بهذا السبيل إما لإعياء الإبل الحاملة لها، أو غير ذلك من الأعذار.

وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات، على كثرة المارة عليها من أطوار الناس.

وصل ابن جبير إلى عيذاب ولاحظ أنها من أعظم الثغور شأنًا «بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها زائدًا إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة». كما لاحظ أنها في صحراء لا نبات فيها ولا يؤكل فيها شيء إلا مجلوب؛ ولكن أهلها في نعمة بما يكسبونه من خدمة الحجاج ولا سيما من تأجير الجلاب - والواحدة جلبة - وهي المراكب التى تنقل الحجاج بين عيذاب وجدة. وقد وصفها ابن جبير وصفًا فريدًا؛ لأنها كانت غريبة لا يستعمل فيها مسمار البتة. وكان أهل عيذاب لا يحفلون براحة الحجاج؛ فكانوا «يشحنون الجلاب بهم، حتى يجلس بعضهم على بعض وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج» لكي يستطيع صاحب الجلبة منهم أن يستوفى ثمنها في رحلة واحدة. والواقع أن ابن جبير قدر أن الحلول بعيذاب من أعظم المكاره التى حف بها السبيل إلى الحج، فقد كان ساخطًا على هوائها الذى «يذيب الأجسام» ومائها «الذى يشغل المعدة على اشتهاء الطعام» وسكانها «الذين لا خلاق لهم ولا جناح على لاعنهم». وأشار في هذه المناسبة إلى ما يزعمه الناس من أن سليمان بن داود كان اتخذها سجنًا للعفارتة. ونصح ابن جبير بتجنبها وباتخاذ طريق الشام. والحق أن هذا الطريق الأخير ومثله طريق العقبة، كان طريقًا طبيعيًا ولا سيما لحجاج المغرب والأندلس. ولكن وجود الصليبيين في الشام حمل معظم الحجاج على التحول إلى طريق عيذاب.

***

على أن الجزء الأساسي في رحلة ابن جبير إنما هو وصف مكة والمسجد الحرام ومناسك الحج وزيارة المدينة؛ فقد استغرق هذا كله أكثر من ثلث

الكتاب، ووفق فيه الرحالة لتدوين أخبار وملاحظات ذات شأن عظيم في دراسة التاريخ والآثار الإسلامية. ولا عجب فقد أقام بمكة حول ستة شهور. وغضب ابن جبير لما شاهده من سوء معاملة الحجاج، وإمعان أهل مكة في استغلالهم، لولا تدارك صلاح الدين بإرساله المال والطعام إلى مكثر الحسنى أمير مكة، فضلا عن منحه إقطاعات في صعيد مصر واليمن. غير إن غياب صلاح الدين في حروبه مع الصليبيين في الشام كان يشجع مكثر الحسنى على التمادى في نهب الحجاج، حتى تمنى ابن جبير أن تطهر تلك الأراضى المقدسة بسيوف مولاه ملك الموحدين.

وكان أمراء مكة يدينون بالطاعة للخليفة العباسي ولصلاح الدين؛ ولكنهم كانوا ينعمون بقسط وافر من الاستقلال، ما دام الخليفة العباسي ضعيفا، وما دام صلاح الدين مشغولا بقتال الصليبيين. وذكر ابن جبير أن الخطيب في الحرم الشريف كان يدعو يوم الجمعة للخليفة العباسي. ثم لأمير مكة ثم للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ولأخيه وولى عهده أبي بكر. «وعند ذكر صلاح الدين بالدعاء تخفق الألسنة بالتأمين عليه في كل مكان. وحق ذلك عليهم، لما يبذله من جميل الاعتناء بهم وحسن النظر لهم، ولما رفعه من وظائف المكوس عنهم». وليس هذا هو الوضع الوحيد الذى أشار فيه ابن جبير إلى صلاح الدين بأعظم الإعجاب والتقدير.

أكمل ابن جبير حجته؛ ولكنه لم يعقد العزم على العودة إلى وطنه مباشرة. ولم يكن ليفكر في الرجوع من طريق عيذاب؛ فرافق ركب الحجاج العراقي، ومر بطريق نجد قاصدا الكوفة؛ ودون أن هذه المدينة «كبيرة عتيقة البناء قد استولى الخراب على أكثرها، ومن أسباب خرابها قبيلة خفاجة المجاورة لها، فهي لا تزال تضر بها». وعبر الفرات عند مدينة الحلة على

جسر جديد أمر الخليفة بتشييـده لراحة الحجاج. وكان هذا الجسر معقودا على مراكب كـبار متصلة من الشط إلى الـشط، تحف بها من جانبهـا سلاسل من حديد «كـأذراع المفتـولة عظما وضـخامة، ترتبط إلـى خشب مثـبتـة في كلا الشطين تدل على عظم الاستطاعـة والقدرة». واجتاز ابن جبـير بظاهر مدينة الحلة جسرا آخر على نهر متشعب من الفرات يسمى «النيل».

***

وأخيرًا ألقى الرحالة عصا التسـيار في بغداد. ووصف أحياءها المختلفة ومساجـدها وأسواقها وحـماماتها ومـدارسها ومستـشفياتهـا؛ ولكنه لم يجد العاصمة العباسية على حـسب ما تخيل فكتب: «إن هذه المدينة العتيقة، وإن لم تزل حاضرة الخلاصة العباسيـة، . . . قد ذهب أكثر رسمها، ولم يبق منها إلا شهير اسـمها. . . أما أهلها فلا تكاد تلـقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياء، ويذهب بنفسـه عجبًـا وكبرياء. يزدرون الغـرباء، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والإباء، ويستـصغرون عمن سواهم الأحاديث والأنبـاء. قد تصور كل منهم في معتقده وخلده أو الوجود يصغـر بالإضافة لبلده؛ فهم لا يستكرمون في معمور البسيطة مثوى غير مثواهم، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلادًا أو عبادًا سواهـم. . . يظنون أن أسنى الفخـار في سحب الإزار. . . يتـبايعـون بينهم بالذهب قرضًا؛ فلا نفقة فيها إلا من دينار تقرضه، وعلى يدى مخسر للميزان تعرضه، لا تـكاد تظفر من خواص أهلها بالورع العـفيف، ولا تقع من أهل موازينها ومكـاييلها إلا على من ثبت له الويل في سورة التطفيـف. فالغريب منهم معـدوم الإرفاق مـتضاعف الإنفـاق، لا يجد من أهلهـا إلا من يعامله بنفاق، أو يهش إليه هشاشة انتفاع واستـرفاق. . . فسوء معاشرة أبنائها يغلب على طبع هوائها ومـائها. . . أستـغفر الله إلا فـقهاءهم المحـدثين ووعاظهم المذكرين. . . لكنهم معهم يضربون في حديد بارد».

والحق أن ابن جبير كان قاسيًا على أهل بغداد قسوة تذكرنا بقسوة الطبيب ابن رضوان (القرن ٦هـ، ١٢م) على المصريين عامة، حين أسرف في وصفهم بالجبن والبخل وما إلى ذلك، حتى لاحظ أن كلابهم أقل جرأة وبهائمهم أشد ضعفًا من الكلاب والبهائم في سائر الأقاليم(١).

وعرض ابن جبير في وصف بغداد لقصور الخليفة وأسرته. وذكر أن بنى العباس كانوا وقتئذ متعلقين اعتقالا جميلا لا يخرجون ولا يظهرون ولهم المرتبات القائمة، ولم يكن للخليفة وزير؛ بل كان له موظف لشئونه الخاصة، يعرف بنائب الوزارة، وله فضلا عن ذلك قيم على الدولة كلها يعرف بالصاحب أستاذ الدار ويدعى له في الخطبة إثر الدعاء للخليفة.

***

وانتقل ابن جبير إلى الموصل مارًا بسر من رأى وتكريت وأعجب بما في الموصل من عمائر حربية ودينية ومستشفيات. ثم واصل الرحلة بين مدن الشام المختلفة فوصف آثارها، وتحدث عن عادات أهلها وعن عنايتهم بالغرباء. ودون «أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به أحد المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم، ويقولون: هؤلاء ممن انقطع إلى الله عز وجل فتجب مشاركتهم».

والحق أن ابن جبير نبه إلى ما كان من مودة وعلاقات تجارية بين أفراد المسلمين والمسيحيين، حتى في العهد الذى كانت الحروب الصليبية ناشبة فيه بين أمراء الفريقين، فقد كتب في رحلته: «ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى، وربما يلتقى الجمعان ويقع المصاف

(١) راجع الفصل الذي كتبه الأستاذ فييت عن سكان مصر في كتاب:
Hautecoeur et G. Wiet: les MNosquees du Caire ج١ ص٦٦ - ٧١

(القتال) بينهم، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم. شاهدنا في هذا الوقت الذى هو شهر جمادى الأولى من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك، وهو من أعظم حصون النصارى، وهو المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشق قليلا، وهو سرارة أرض فلسطين، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة، يذكر أنه ينتهى إلى أربعمائة قرية، فنازله هذا السلطان وضيق عليه وطال حصاره، واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك، وتجار النصارى أيضًا لا يمنع أحد منهم ولا يعترض، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم. وهي من الأمنة على غاية. وتجار النصارى أيضا يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب. هذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم، وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك، ولا تعترض الرعايا ولا التجار، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلمًا أو حربًا، وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يستوفى الحديث عنه».

ولاحظ ابن جبير أن الفلاحين المسلمين في الأرض التابعة للمسيحيين كانوا في رخاء، بينما كان إخوانهم الفلاحون المسلمون عند الملاك من بنى دينهم لا ينعمون بمثل ذاك الرفق والعدل. قال ابن جبير: «ورحلنا من تبنين سحر يوم الإثنين وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منظمة، سكانها كلها مسلمون وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه... وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط، ولا

يعترضونهم في غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدون أيضا؛ ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم، وكل ما بأيدى الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذا السبيل، رساتيقها كلها للمسلمين وهي القرى والضياع، وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم، لما يبصرون عليه إخوانهم من رساتيق المسلمين وعمالهم، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق. وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكى الصنف الإسلامي جور صنفه المالك له، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الإفرنج ويأنس بعدله».

لاحظ ابن جبير أن الصليبيين كانوا يفرضون على المسلمين المغاربة ضريبة خاصة قدرها دينار على كل شخص. ودوّن أن السبب في ذلك أن طائفة من المجاهدين المغاربة اشتركت مع مسلمي الشرق الأدنى في فتح أحد الحصون الصليبية؛ وكان لهم الفضل الأكبر في هذا الميدان. والظاهر أن الصليبيين ضايقهم قدوم المغاربة من بلادهم البعيدة للمساهمة في قتالهم، فجزوهم بهذه الضريبة «وقال الإفرنج إن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا نرزأهم شيئًا، فلما تعرضوا لحربنا وتألبوا مع إخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم». ولكن الواقع أن اشتراك المغاربة في الحروب الصليبية في الشرق ليس غريبًا في شيء، ولا سيما إذا تذكرنا أن بلاد المغرب والأندلس كانت في حروب صليبية مع المسيحيين قبل أن تنشب الحروب الصليبية في الشرق الأدنى.

***

ووصل ابن جبير إلى عكا في العاشر من جمادى الآخرة سنة ٥٨٠هـ ١٨ من سبتمبر ١١٨٤، ووصفها بأنها ملتقى تجار المسلمين والنصارى من

جميع الآفاق. ولا عجب فقد كـانت حينئذ أهم ثغور الصليبيين. وعلم هناك أن مركبًا في ثغر صور عازم على الإبحار إلى بجاية بتونس. فذهب إلى صور ولكنه استصغـر المركب فقفل راجعًا إلى عكا بطريق البحر وركب فيـها سفينة جنوية كبـيرة من سفن الحجـاج المسيحيين والمسلمين كـان قصدها ثغر مـسينة بجزيرة صقلية. ودوّن ابن جبير أنها كانت كالمدينة الجامعة؛ فيها أكثر من ألفى مسـافر، ويباع فيـها كل ما يحتـاجه المسافـر، وأن المسلمين كانوا في المركب بمعـزل عن الإفـرنج. وأشار إلى أن عـددًا من المسـافـرين من المسلمين ومن البلغريين (تعـريب لكلمة Peregrini بمعنى حجـاج، في اللاتينية) هلكوا في السفينة فقذف بهم في البحر، وورثهم قائد المراكب لأن المتبع عندهم أنه يرث كل من يموت في البحر. واسـتغرقت الرحلة إلى مسينة حول شـهرين، وكان المقرر لها نحو أسبـوعين. والحق أنها كانت رحلة غنية بالأحداث والأخطار، تشهد بما كان يتعـرض له المسافرون في البحر حينئذ، وبما كـان يستلزمه قيادة السفن من مهارة ومـران وصبر. وقد أتيح لابن جبير في وصف عـبور البحر الأبيض المتوسط قادمًا وعائدًا، وفي وصف عبوره البحر الأحمر، أن يستعمل كثيـرًا من مصطلحات الملاحـة وبناء السفن في العصور الوسطى، فـحفظ لنا بذلك عددًا وافـرًا منها، ويمكن الإفادة منه في فـهم بعض الأخرى المدونة في ذلك العصر.

أرست السفينة أخيرًا عند مدينة مسينة في صـقلية، فوصفها ابن جبير؛ ولكنه وصف ملؤه المفارقـات المتناقضات فبـينما يقول إنه «لا يقر فيـها لمسلم قرار» وإنها «لا توجـد لغريب أنسًا» إذ به يضيف إلى ذلك «أن أسواقهـا نافقة حفيلة، وأرزاقهـا واسعة بأرغاد العيش كفـيلة، لا تزال بها ليلك ونهارك في أمان وإن كنت غريب الوجه واليد واللسـان». ويلوح أن ابن جبير لم يكن قد

اطمأن بعد إلى حال المسلمين في صقلية، فإنه زار بعد ذلك بالرمة عاصمة البلاد، وزاد غيرها من مدن الجزيرة، ووصف عمرانها، وثقة حكامها المسيحيين برعاياها من المسلمين؛ وقد كان عددهم وافراً في هذا الإقليم، الذى التقت فيه مختلف المدنيات الوثنية والمسيحية والإسلامية.

ولكنا لا نستطيع أن نركن إلى رحلة ابن جبير في الوقوف على حال المسلمين بصقلية، ومعرفة ما كانوا يتمتعون به من الحرية الدينية بعد أن زال سلطانهم عن هذه الجزيرة بقرن من الزمان. فآنًا نراه يدون ما يشهد بأن المسيحيين كانوا يحسنون معاملة المسلمين، ويستخدمونهم في الوظائف والمهن، حتى في أعظمها شأنًا ببلاط الأمير؛ وآنًا نراه يروى حديث رجل مسلم لقيه في مسينة، اسمه عبد المسيح، وقال له: «أنتم مدلون بإظهار الإسلام فائزون بما قصدتم له، رابحون إن شاء الله في متجركم، ونحن كاتمون إيماننا، خائفون على أنفسنا، متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرا».

وعلى كل حال فإن الذى وصل إليه المؤرخون أن الدولة النورمانية في صقلية كانت تشمل المسلمين بقسط وافر من رعايتها وكانت تعترف بفضلهم وسبق مدينتهم في كثير من نواحي الحياة. وإذا لم يكن ما كتبه ابن جبير في هذا الصدد واضحا تماما، فإن سائر وصفه لبلاد صقلية عظيم الفائدة من الناحيتين التاريخية والجغرافية؛ لأنه كان دقيق الملاحظة في وصف الظواهر الاجتماعية. من ذلك ما فطن له من أن الخلاف بين أفراد الأسرة الواحدة من المسلمين كان يؤدي أحيانا إلى دخول بعضهم في المسيحية، فراراً من رقابة أو ولاية أو علاقة شرعية أخرى.

ثم أقلع ابن جبير من صقلية على ظهر سفينة جنوية جملته إلى ثغر قرطاجنة في الأندلس فوصل إليها في الخامس عشر من المحرم سنة ٥٨١ ثم

واصل السفر حتى وصل إلى غرناطة في الثاني والعشرين من المحرم (٢٥ أبريل سنة ١١٨٥) بعد أن غاب عنها حول حول سنتين وثلاثة أشهر.

وقام ابن جبير برحلة ثانية إلى الشرق الإسلامي سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م)، استغرقت سنتين وبضعة أشهر. وقيل إن الذى جذبه إلى الشرق هذه المرة ما سمعه من استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس سنة ٨٥٣هـ (١١٨٧م). ثم ترك ابن جبير المقام في غرناطة وانتقل إلى بلاد المغرب حيث أقام عشرين سنة أو نيف؛ رحل بعدها إلى الشرق مرة ثالثة سنة ٦١٤هـ (١٢١٧م). وقيل إن ذلك كان بسبب وحده على زوجه عاتكة، التى توفيت في تلك السنة والتى نظم فيها ديوانه «نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح». واستقر ابن جبير في الإسكندرية، وتوفى بها في السنة نفسها وقد جاوز الثانية والسبعين.

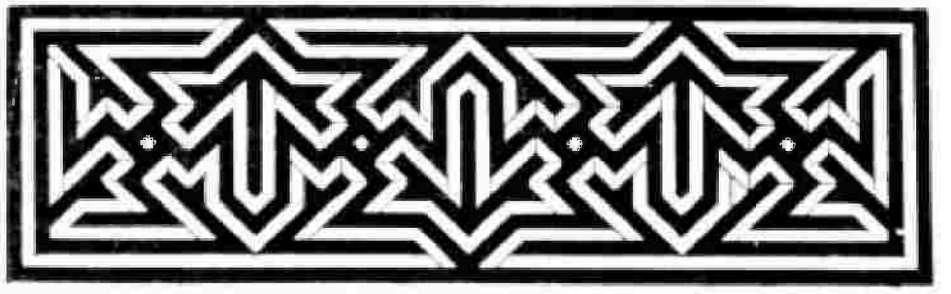

الهروى السائح

هو على بن أبى بكر - وقيل أبى طالب - بن على الهروى الأصل. ولد في الموصل. وطاف في أنحاء الشرق الإسلامي وفي الهند وفي القسطنطينية والمغرب وصقلية وغيرها من جزائر البحر الأبيض المتوسط. وكان مغرما بالأسفار وبكتابة اسمه على الآثار التى يزورها، حتى كتب عنه ابن خلكان «أنه لم يترك برًا ولا بحرًا ولا سهلا ولا جبلا من الأماكن التى يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه، ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه في حائطه» وقد سار ذكره بذلك، حتى عرف باسم الهروى السائح.

والمعروف أنه زار القسطنطينية في زمن الإمبراطور عمانوئيل كومنينوس، وأنه زار دمشق سنة ٥٦٨هـ (١١٧٣م) قبل أن يستعيدها صلاح الدين من يد الصليبيين. وكان في الإسكندرية سنة ٥٧٠هـ. ثم كان في قافلة نهبها الصليبيون سنة ٥٨٨هـ (١١٩٢م)؛ ففقد فيها كتبه وبعض المذكرات التى جمعها، ولعله كان حانقًا لهذا السبب؛ أو لعل تقواه وشدة اعتداده بنفسه حملاه على أن يرفض مقابلة الملك ريكاردوس قلب الأسد، الذى سمع بفضله، وحرص على أن يتحدث إليه.

واتصل الهروى في خاتمة حياته بالملك الظاهر بن صلاح الدين؛ فأقام تحت رعايته في حلب إلى أن توفى سنة ٦١١هـ (١٢١٤م).

وقد وصل إلينا من مؤلفات الهروى كتاب «الإشارات إلى معرفة الزيارات» ولا يزال مخطوطًا لم يطبع إلى اليوم: ولكن الرحالة يشير فيه إلى كتب أخرى من تأليفه، مثل كتاب «منازل الأرض ذات الطول والعرض» و«كتاب الآثار والعجايب والأصنام».

أما كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات، فقوامه ذكر الآثار والعمائر الدينية التى زارها الهروى والتى يستطرد في الحديث عنها إلى بعض البيانات التاريخية الطريفة. وفي دار الكتب المصرية نسخة مخطوطة منه بعنوان «رحلة أبى الحسن بن أبي بكر بن على الهروى الموصلى، تمت كتابتها سنة ٦٠٢هـ» أي قبل وفاة المؤلف. ومما يؤسف له أن هذه الرحلة غنية بالخرافات والأساطير، وإن كنا نجد في بعض أجزائها وصفًا وأحاديث تدل على دقة الملاحظة.

وقد نسخ الهروى على منوال كثير من المؤلفين، فقال في مقدمة كتابه إن بعض الإخوان والخلان سألوه أن يذكر لهم ما زاره من الزيارات، وما شاهده من العجائب والأبنية والعمارات، وما رآه من الأصنام والآثار والطلمسات «في الربع المسكون والقطر المعمور» وأنه رفض أن يلبى هذا الطلب، إلى أن اجتمع برسول الخليفة العباسي إلى صلاح الدين، وأقنعه هذا الرسول بتأليف الكتاب الذى وصل إلينا.

ومن الطريف أن الهروى اعتذر عما في الكتاب من خطأ فقال: «وإن جرى السهو فيما أذكره بطريق الغلط لا بطريق القصد، فأسأل الناظر فيه والواقف عليه الصفح في ذلك وإصلاح الخطأ وإيضاح الحق؛ فإن كتبي أخذها الانكتار ملك الفرنج؛ ورغب في وصوله إليه، فلم يمكن ذلك، ومنها ما غرق في البحر، وقد زرت أماكن ودخلت بلادًا من سنين كثيرة؛ وقد

نسيت أكثر ما رأيته، وشذ عنى أكثـر ما عاينته، وهذا مقام لا يدركه أحد من السـائحين والزهاد، ولا يصل إليه أكـثر المسـافرين والعـباد، إلا رجـل جال الأرض بقدمه، وأثبت ما قلته بقلبه وقلمه».

ومما كتبه الهروى: «الأهرام من عجائب الدنيا، وليس على وجه الأرض شرقيها وغربيهـا عمارة أعجب منها ولا أعظم ولا أرفع، ورأيت بمصر أهرامًا كثيرة منها خـمسة كبار والباقي صغار. فأمـا الكبار فاثنان عند الجزيرة واثنان عند قرية يقـال لها دهشور، وهرم عند قرية يقـال لها ميدوم، وقـد اختلفت أقاويل الناس فيها وفي بانيها وما يريد بها، ومنهم من قال إنها قبور للملوك، ومنهم من قال إنهم عـملوها خوفًا من الطوفـان، وقيل إن المأمون فـتح هرمًا منها، وهو أحد الهرمين اللذين عند الجزيرة؛ فـوجدوا داخله بئرًا مربعة، في تربيعها أبـواب يفضى كل باب منها إلى بيت فيه موتى بأكـفانهم، وقيل إنهم وجدوا في رأس هذا الهرم بيتًـا فيه حوض من الصخر على مثال القـبر، وفيه صنم كـالآدمى الرهـنج، وفي وسطه إنسـان عليـه درع مـن الذهب مـرصع بالجوهر، وعلى صدره سـيف لا قيمة له وعند رأسـه حجر ياقوت كالبـيضة كالنار». وأضاف الهروى أنه دخل إلى هذا الهرم ورأى الحوض واضحًا، وقد كتب أنه سيذكـر في كتاب العجائب والآثار والأصنام والطلسمـات جميع ما سمعه من أخبار الأهرام والضم أبى الهـول وجميع البرابى (المعابد) التى ببلاد الصعيد.

ومما دونه عن الأقصر: «مدينة بها من الآثار والقصور والأصنام، وصور الأصنام وصور السباع والدواب ما لم أر مثله في بلاد الصعيد ولا في غيرها، وذرعت يد صنم فكان من المرفق إلى مفصل الكف سبعة أذرع».

وقد كـتب الهروى عن المـقابر الأثرية في صـعيـد مصر، وعن الجـثث

المدفونة فيها، وعن أكفانها المحفوظة على حالها الأولى. والحق أن الاكتشافات الأثرية الحديثة، والمنسوجات الوافرة التى عثر عليها المنقبون عن الآثار في تلك المقابر، كل ذلك يؤيد ما كتبه الهروى كل التأييد.

وكتب عن أسوان: «آخر بلاد الصعيد وبلاد الإسلام وبها الجنادل حجارة نابتة في وسط البحر. فإذا كان وقت زيادة النيل، يوضع عليها سرج. فإذا زاد البحر وأخذها، وأرسلوا البشارة إلى مصر. فينزلوا في مركب صغير ويسبقوا الماء ويبشروهم بالزيادة. وجميع معادن حجارة المانع والعمد التى بالديار المصرية ومسال فرعون وعمد السوارى بالإسكندرية من جبال هذه المدينة. ورأيت آثار القطاعات في الجبل والحجارة المانع والعمد مقطوعة».

وقد أعجب الهروى بما رأى في مصر من زهور ونبات، فكتب في رحلته «وبالجملة في ديار مصر ونيلها من عجائب الدنيا، ورأيت بها في أوان واحد مجتمعًا وردًا ثلاثة ألوان وياسمين لونين ونيلوفر لونين وآسا ونسريتا وريحانًا وخبزيًا وبنفسجًا ومنتورًا ونبقًا وأترنجًا وليمونًا مركبًا وطلعًا ورطبًا وموزًا وجميزًا وحصرمًا وعنبًا وطينًا (تينًا) أخضر ولوزًا وقثاء وفقوسًا وبطيخًا وباذنجانًا وباقلاً أخضر ويقينًا وحمصًا أخضر وخسًا وجوزًا أخضر ورمانًا وهليونًا وقصب سكر».

أسامة بن منقذ

هو أسامة بن مـرشد من بنى منقذ، أمراء إقليم شيزر شـمالي سورية. ولد سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥). وكانت إمارة هذا الإقليم قـد آلت إلى أبيه مرشد ولكنه تنازل عنها لأخـيه. وعنى الأمير بأسامـة، ابن أخيه؛ ولكنه رزق ولداً ذكراً فـاتجه إليه بعطفه، مـهملا أسامـة. وغادر هذا قلعة شيـزر. وحدث أن دمرت هذه القلعة في زلزال سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧م) ومات من كان فيها من آل منقذ. أما أسـامة فقد كان في بعض أسـفاره. ومات سنة ٥٨٤هـ (١١٨٨م) بعد أن جاوز التسعين.

وقد قـام أسامـة بعدة رحـلات في مصـر والشام وبلاد الجـزيرة وبلاد العرب. ومع أنها رحلات ضيقة الأفق مـحدودة الدائرة، فإن لها شأنًا عظيما في وصف الحيـاة الاجتماعـية والاقتـصادية، وفي بيان العـلاقة بين المسلمين والمسـيحـيين في الشـرق الأدنى في القرن السـادس الهـجري (الثـاني عشـر الميلادي). ذلك أن أسامة كـان أميراً فارسًا وأديبًا شـاعراً، وأتيح له أن يتصل بأمـراء المسلمين في عـصـره، وأن يلقى بعض الأمـراء الصليبـيين ويصـادق الفرسـان من رجالهم. وأخـبار رحلته في كـتابه «الاعتـبار» تمتـاز بالدقة في الملاحظة، والصدق في الرواية، والإبداع في الفن القصـصي، مع التوفيق في الفكاهة وإيراد النكتة.

وقـد وقف الدكتـور فيليب حِـتّى Philip Hitti اللبنانى أسـتاذ الآداب الساميـة في جامعة برنستون بالولايـات المتحدة على نشر كتاب الاعـتبار سنة ١٩٣٠. وقدمه بترجمة طريفة لأسامة، قـال فيها: «فحياة أسامة إذن تمثل لنا الفروسية الإسلامية العربية على ما ازدهرت في ربوع الشام في أواسط القرون الوسطى، والتى بلغت حدها الكامل في صلاح الدين، وسيرته تتضمن موجز تاريخ البلاد في القرن الثاني عشر - قرن التجريدات الصليبية الثلاث الأولى، ومذكراته الموسومة بكتاب «الاعتبار» مـرآة تتجلى فيها المدينة الشامية في أجلى مظاهرها - وذلك ليس بحد ذاتها فقط بل مع المدينة الإفرنجية التى قامت إلى جانبـها. ولو أن أسامـة عاش اليوم، لكان عـضوا عامـلا في المجمع العلمي العـربي، ولكان بيـته صـالونًا للأدب بدمـشق، ولراسل «الهـلال» و«المقطم» ولأكثر من العيش في الهواء الطلق، يدرس طبائع الحيوان ويرقب نمو النبات، ولنالت جـياده العـربيـة جوائز السـبق في بيـروت، ولكان بلا تردد في أثناء الحرب العظمى ديوان فرقة من المطوعة يتولى قيادتها بنفسه».

وكتـاب «الاعتبـار» غنى بأخبار القـتال بين المسلمين والصليـبيين، وبما شاهده أسامة في دمشق ومصر، وبما اشترك فيه من المطارد والمصايد ومكافحة الأسود. ومن أمتع فصوله ما كتبـه أسامة عن الصليبيين؛ فقد كان يطوف في أنحاء إماراتهم، ويقـاتلهم مع سائر المسلمين مع صداقـته لبعضهم ولا سـيما الفرسـان الداوية Templars - وكـان هؤلاء الفرسـان يخلون له في المسجـد الأقـصى مكانا صغـيرًا يصلى فـيـه حين يزور بيت المقدس. ومما كـتبـه عن الإفرنج: «ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة. يكون الرجل منهم يمشى هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتـزل بها ويتحدث معها. والزوج واقف ناحـية ينتظر فـراغـها من الحـديث. فإذا طولت عـليه خـلاها مع المتحـدث

ومضى!». وساق أسامة ثلاث قصص في هذا الصدد. منها قصة إفرنجي «جاء يومًا ووجد رجلا مع امرأته في الفراش» فقال له: «أى شيء أدخلك إلى عند امرأتى؟» قال «كنت تعبان، دخلت أستريح». قال «فكيف دخلت إلى فراشي؟» قال «وجدت فراشًا مفروشًا نمت فيه» قال «والمرأة نائمة معك؟» قال «الفراش لها. كنت أقدر أمنعها من فراشها!؟» قال الزوج «وحق ديني، إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت» - فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته!».

وكان أسامة يعجب بمهارة بعض أطباء الصليبيين، ولكنه كان يتهكم من جهل البعض الآخر ومن سذاجة الناس في الإيمان بهم. وروى في هذا الصدد قصة عن حاكم بلدة صليبية شمالى لبنان. كان هذا الحاكم صديقًا لعم أسامة فكتب إليه يطلب منه إيفاد طبيب يداوى بعض المرضى من أهل بلدته. فأرسل إليه عم أسامة طبيبًا عربيًا نصرانيًا. ولم يطل غياب هذا الطبيب؛ فلما رجع قال له أهل أسامة متهكمين: ما أسرع ما داويت المرضى! فأجاب «أحضروا عندى فارسًا قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف[1]. فعلمت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت. وحميت المرأة ورطبت مزاجها. فجاءهم طبيب إفرنجي فقال «هذا ما يعرف شيء يداويهم!» وقال للفارس «أيهما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟» قال «أعيش برجل واحدة» قال «أحضروا لي فارسًا قويًا وفأسًا قاطعًا». فحضر الفارس والفأس، وأنا حاضر، فحط ساقه على قرمة خشب فقال للفارس «أضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها» فضربه وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت. ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته. وأبصر المرأة فقال «هذه امرأة من رأسها شيطان قد عشقها. احلقوا شعرها» فحلقوه. وعادت تأكل من مآكلهم

(١) نوع من الهبوط والتعب العصبي.

الثوم والخردل فـزاد بها النشاف. فقـال «الشيطان قد دخل في رأسهـا» فأخذ الموسى وشق رأسها صليبًا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح، فماتت في وقتها. فقلت لهم «بـقى لكم إلىّ حاجة؟!» قالوا «لا» فجئت وقد تعلمت من طبعهم ما لم أكن أعرفه[1]!».

وروى أسامة في كـتاب الاعتبار (ص ١٣٤ - ١٣٥) قصـة استنبط منها أن الصليـبيين ترق أخـلاقهم وتحـسن طباعـهم باستـيطان الشـرق ومعـاشرة المسلمين. وقال في هذا الصـدد: «فكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفـرنجية أجفى أخلاقًا من الذين تبلدوا[2] وعاشروا المسلمين».

بل أشار أسـامة في كـتابه إلى أن بعض الصليـبيين تأقلمـوا في الشام، وعاشـروا المسلمين وتطبعـوا بطباعهـم، وكانت بينهم وبين المسلمين عـلاقات طيبة قال أسامة «فمن ذلك أنى نفذت صاحبا إلى أنطاكية في شغل. وكان بها الرئيس تادرس بن الصفتى (Theodorus Sophianos) وبينى وبينه صداقة، وهو نافـذ الحكم في أنطاكيـة. فقـال لصاحـبي يومًا «قـد دعاني صـديق لي من الإفرنج. تجئ مـعى حتى ترى زيهم؟» قـال «فمضـيت معه، فـجئنا إلى دار فارس من الفرسان العتق، الذين خرجـوا في أول خروج الإفرنج، وقد اعتفى من الديوان والخدمـة، وله بأنطاكيـة ملك يعيش منه، فـأحضر مـائدة حسنة وطعامًا في غاية النظافة والجودة. ورآني مـتوقفًا عن الأكل؟ فقال: »كل طيب النفس، فأنا مـا آكل طعام الإفرنج، ولى طبـاخات مصـريات ما آكل إلا من طبيخهن ولا يدخل دارى لحم الخنزير، فأكلت وأنا محترز وانصرفنا».

---

(١) كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ص ١٣٢ -١٣٣.

(٢) لعل يقصد «تأقلموا» وأصبحوا من أبناء البلد.

وقد وصف أسامة في «كتاب الاعتبار» ما شاهده في مصر من الأحداث فيما بين سنتى ٥٣٩ و٥٤٩هـ (١١٤٤-١١٥٤م) فتحدث عن وصوله إليها في عصر الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله وعما وقع فيها من الفتن بسبب ثورات الجند، والنزاع القائم بين الخلفاء والوزراء. ولتفاصيل هذه الأخبار شأن تاريخي كبير لأن أسامة ساهم في بعض تلك الأحداث وقام بمهمات سياسية لطائفة من الأمراء. ومن طريف ملاحظاته عن إقليم الطور أنه كان ولاية مصرية بعيدة وأن الخليفة الحافظ لدين الله كان إذا أراد إبعاد بعض الأمراء ولاه الطور.

***

أما الباب الذى عقده أسامة في ذلك الكتاب الكلام على الصيد والطرد فيشهد بأن هذا اللون من الرياضة كان جد شائع ومستحسن في الشرق الإسلامي حينذاك. وهو جليل الشأن لأن أسامة كان من أسرة أصابت في الصيد مهارة ودربة؛ وقد أتيح لأسامة نفسه أن يصحب في الصيد الأمراء المسلمين في سورية والجزيرة ومصر. فدوّن في كتابه شيئًا كثيرًا في شأن الصيد بالبزاة يرمونها على الطيور ويدقون الطبول فتتصيد منها ما تصيد. وكتب في صيد الحيوان ولا سيما الذئب والضبع والأرنب والغزال وحمار الوحش والثعلب والخنزير. ووصف أسامة أساليب الصيد عند المسلمين وصفًا دقيقًا. وذكر بعض النوادر التى تدل على عنايتهم به وعلى أن بعض المولعين بالصيد كانوا يرسلون إلى مختلف الآفاق في طلب البزاة وغيرها من طيور القنص. وكان التعاون صادقًا بين المسيحيين والمسلمين في هذا الميدان؛ فكان الروم في القسطنطينية والمسيحيون من الأرمن يرسلون البزاة والكلاب إلى أصدقائهم من هواة الصيد في الشرق الإسلامي.

وكان أسامة يحترم المرأة ويعنى بأحوالها فألف كتابًا في «أخبار النساء» وروى في «كتاب الاعتبار» قصصًا كثيرة تشهد بما قام به بعض النساء من أعمال البطولة. ولعل هذا جانب من الفروسية ونزعة الأرستقراطية عنده. والحق أن هذه النزعة الأرستقراطية كانت لا تفارقه حتى في حضرة الملوك والأمراء. فقد روى في «كتاب الاعتبار» أنه شهد يومًا الصيد مع الملك العادل نور الدين وسأله هذا أن يصلح الباز فرفض وأظهر نور الدين عجبه من أسامة يقضى عمره بالصيد ولا يحسن إصلاح الباز، فأجاب أسامة: «يا مولاى، ما كنا نصلحها نحن، كان لنا بازيارية وغلمان يصلحونها ويتصيدون بها قدامنا».

***

ومما حدث لأسامة في بعض رحلاته أن وقع وهو ورفاقه أسرى في يد الصليبيين وفقدوا ما كانوا يحملونه من المال والمتاع؛ ولكن أسامة لم يأسف على ذلك كله أسفه على ضياع كتبه التى نبهوها، وعددها أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة؛ وقال في ذلك إن ذهابها كان حزازة في قلبه ما عاش[1].

ومن طريف ما يستنبط من إحدى القصص التى رواها أسامة فى «كتاب الاعتبار» (ص ١١٥) أن استئجار الندابات للندب في المآتم كان معروفا في القرآن الثاني الميلادي كما هو معروف اليوم.

وكان أسامة، مثل الهروى السائح، مغرمًا بكتابة اسمه أو تقييد بعض خواطره في الأمكنة التى ينزل بها، على نحو ما يفعل بعض السياح في العهد الحاضر. من ذلك الأبيات الآتية، وقد كتبها على حائط مسجد في حلب، وكان قد زار المسجد قبلا في طريقه إلى الحج:

(١) كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ص ٣٤ - ٣٥ .

لك الحمد يا مــولاى كم لك مـنة علىّ وفضــل لا يحــيط بها شكرى
نزلت بهذا المسجــد العــام قافــلا من الغزو موفور النصيب من الأجر
ومنه رحلت العيس في عامى الذى مضى نحو بيت الله والركن والحجر
فأديت مفــروضًا وأسقـطت ثقل ما تحملت من وزر المسيئة عن ظهرى

ومنه مــا كــتبــه على حــائط دار سكنهــا بالموصل، حــيث لم تطب له الإقامة. قال:

دار سكنت بها كرهًا وما سكــنت روحــى إلى شجــن فيها ولا سكن
والقبر أسـتر لى منها وأجــمل بى إن صدنى الدهر عن عودى إلى وطنى

ياقوت الحموى

كان ياقوت يوناني الجنس. ولد حول سنة ٥٧٤هـ (١١٧٨م) وأسر في حداثته، وبيع إلى تاجر حموى مقيم في بغداد، فنشأ مسلمًا، وعنى التاجر بتعليمه لينتفع به في تجارته، فتلقى العلوم المعروفة في عصره. ثم قام بعدة أسفار في أعمال تجارية لسيده، ولا سيما بمنطقة الخليج الفارسي. وأعتقه مولاه سنة ٥٩٦هـ (١١٩٩م). وأشركه في تجارته، وأخذ يبعثه في شئونها إلى الأصقاع المختلفة. وحدث أن دب بيهما الخلاف، فاحترف ياقوت نسخ الكتب، وأفاد من ذلك كثيرًا، ثم صافى سيده السابق، واستأنف الأسفار التجارية. ومات السيد، فاشتغل ياقوت بتجارة الكتب؛ ولكنه لم يلبث إن عاد إلى حياة الأسفار والرحلات، فجال في إيران وبلاد العرب وآسيا الصغرى ومصر والشام وبلاد ما وراء النهر. وأقبل على التنقيب في خزانات الكتب، فجمع المواد اللازمة للمعاجم التى عقد العزم على تأليفها في أسماء البلاد وتراجم الأدباء.

ويلوح أنه أفاد من خزائن مدينة إفادة كبيرة؛ فقد أشار إلى ذلك في كلامه على هذه المدينة في «معجم البلدان»؛ فذكر أنه أقام بها ثلاثة أعوام وأنه

[عن كتاب الرواد]

خريطة الكرة الأرضية للشريف الإدريسى

تركها وفيها عشر خزانات كبيرة، لم ير في أي مدينة أخرى مثلها. وكان العمل فيها واستعارة كتبها الموقوفة أمرًا سهلا، حتى أن عدد ما كان عند ياقوت من هذه الكتب في الآن الواحد كان يقرب من مائتي مجلد. والظاهر أنه كان يدفع رهنا للنادر منها. ولكن أكثرها كان بغير رهن. وقد ختم ياقوت حديثه عن هذه الخزانات بقوله «فكنت أرتع فيها، وأقتبس من فوائدها، وأنساني حبها كل بلد، وأنهاني عن الأهل والوالد. وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته، فهو من تلك الخزائن».

***

والمعروف أن ياقوت لم يدون أخبار رحلاته. ولا ريب في أن ما شاهدته في أسفاره وما جمعه من الخزائن التي نقب فيها، كان خير عدة له في تأليف كتابه «معجم البلدان» الذي امتاز بترتيبه على حروف الهجاء، وبدقته واتساعه وجمعه بين الجغرافية والتاريخ والعلم والأدب، حتى أن أحد المستشرقين قال فيه إنه من المؤلفات التي يحق للإسلام أن يفخر بها كل الفخر[1]. وقد فرغ ياقوت من تأليف هذا المعجم في سنة ٦٢١هـ (١٢٢٤م).

ومما يؤسف له أننا لا نستطيع أن نحدد مقدار ما أفاده ياقوت من رحلاته تحديدا دقيقا. فإنه نقل في معجمه عن كثير من الجغرافيين والرحالة والمؤرخين، ولم يعين الأقاليم التي زارها بنفسه وكتب عنها مشاهداته الخاصة؛ مع أنه كان من أكثر العلماء طوافا في عصره، ومن أشدهم عناية بالتاريخ الطبيعي ومظاهر الثقافة الشاملة، ومن أبعدهم عن الأخذ بالخرافات

(١) Carra de Vaux: Les penseurs de l,Islam ج٢ ص١٩.

والأساطير. وقد عني أحد المستشرقين (Heer) في نهاية القرن الماضي بدراسة معجم البلدان وأخرج بحثا في المراجع التاريخية والجغرافية التي اعتمدها ياقوت لتصنيف هذا المعجم. ولكن أحدا لم يستطع حتى الآن أن يبين الخاص وآثار أسفاره وتجاربه في هذه الموسوعة الجغرافية الجليلة الشأن.

***

ومهما يكن من شيء فقد امتاز ياقوت عن كثير من مؤلفي العرب بملكة النقد التي كانت تتجلى في روايته بعض الأساطير الذائعة في عصره وفي حكمه على بعض الأساطير والتعليل لها. من ذلك ما لاحظه الدكتور حسين فوزي في كتابه «حديث السندباد القديم» (ص١٢٣). فقد كتب ياقوت في مادة (جاسك) من «معجم البلدان»:

«جاسك بفتح السين المهملة وآخره كاف. جزيرة كبيرة بين جزيرة قيس هي المعروفة بكيش - وعمان قبالة مدينة هرمز. بينها وبين قيس ثلاثة أيام وفيها مساكن وعمارات يسكنها جند ملك جزيرة قيس. وهم رجال أجلاء أكفاء لهم صبر وخبرة بالحرب في البحر وعلاج للسفن والمراكب ليس لغيرهم. وسمعت غير واحد من جزيرة قيس أهدى يقول أهدى إلى بعض الملوك جواري من الهند في مراكب فرفأت تلك المراكب إلى هذه الجزيرة فخرجت الجواري يتفسحن فاختطفهن الجن وافترشهن فولدن هؤلاء الذين بها».

وطبيعي أن يروى ياقوت هذا الحديث المتداول بين أهل زمانه؛ ولكنه يحرص على أن يشعرنا بأنه أسطورة وعلى أن ينسبه إلى قائليه فينص على أنمه سمعه من «غير واحد من دجزيرة قيس» كما يحرص بعد هذا كله على محاولة تفسيره فيضيف:

«يقولون هذا لما يروى فيهم من الجلد الذي يعجز عنه غيرهم، ولقد حدثت أن الرجل منهم يسبح في البحر أياما وأنه يجالد بالسيف وهو يسبح مجالدة من هو على الأرض».